

## السؤال

في أحد المواقع الإسلامية ، تم تفسير حديث ( ناقصات عقل ودين ) كما سيرد في الكلام الآتي: " يبين أن المرأة لا تقل في عقلها عن الرجل ، من حيث إنها ناقشت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنها جزلة ، أي : ذات عقل وافر . ومن حيث أن الواحدة منهن تذهب بعقل اللبيب ، أي الوافر العقل . فكيف تذهب بعقله إذا لم تكن أذكى منه ، أو أنه ناقص عقل على أقل الاحتمالات . بالإضافة إلى ذلك فإن الإسلام يعتبر أن المرأة والرجل سواءً أمام التكاليف الشرعية ، من حيث الأداء والعقوبة ، فلو كانت المرأة ناقصة عقل ، فكيف يكون أداؤها وعقوبتها بنفس المستوى الذي للرجل ، فهذا ينافي العدل الذي يتصف به الله ، وينادي به الإسلام ، فناقص العقل لا يكلف بمثل ما يكلف به من هو أكمل منه عقلاً ، ولا يحاسب بنفس القدر الذي يحاسب به ، على فرض أن الرجل أكمل عقلاً من المرأة " وهذا التفسير أوضح لي الأمر ، لكن الإشكالية هنا : عن قتادة ، قوله : ( أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ) قال : الجواري يسفهنّ بذلك ، غير مبين بضعفهنّ . ثنا ابن ثور، عن قتادة : وأما قوله : ( وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ) يقول : فلما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها . كيف يكون معنى الآية الكريمة تسفيه النساء ، وأن حجتها على نفسها ، بينما أثبت تفسير الحديث عكس ذلك تماما . وفي بعض التفسيرات الأخرى حسب ما أذكر يقال : كيف تجعلون أدنى الجنسين بنات لله . ولو كانت الآية المقصود بها النساء ، فلم لم يقل الله عز وجل : ( أو من تنشأ في الحلية وهي في الخصام غير مبين ) وأخيرا ، هناك تفسير للآية في مقطع على البيوتوب ، أن المقصود به هم الكفار الذين نسبوا لله البنات ، وهم في الخصام غير مبينين لحجتهن ، والحلية لها تفسير آخر ؛ لأنه لم يتبعها كلمة تلبسونها ، تفسير صحيح ؟

## الإجابة المفصلة

الحمد لله.

اختلف المفسرون في المقصود بقول الله عز وجل : ( أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ) الزخرف/18 ، على قولين :

القول الأول :

المقصود النساء اللاتي يُنشأن على لبس الزينة والحلي ، وهن لضعفهن وحيائهن لا يتمكن من إقامة حجتهن ، ولا يقدرن على الحجاج والخصام .

وهذا قول جماهير المفسرين من المتقدمين والمتأخرين ، ثبت عن مجاهد ، وقاتادة ، والسدي ، كما أسنده عنهم الإمام

الطبري في " جامع البيان " (21/579)، واستقرت عليه معظم التفاسير المطبوعة ، المختصرة والموسعة .  
وليس في هذا القول تسفيه للنساء ، ولا تقليل من شأنهن وقدرهن ، وإنما مرتكزه : جبلة الحياء الذي خلقت عليه المرأة ،  
وإيثارها اجتناب الجدل والخصام ، كما هو مركز في فطرتها وطبيعتها التكوينية ، وهذا ثناء عليها ، واعتبار للقيمة التي  
تحوزها في تركيبها .

وقد نفى رب العزة عن نفسه اتخاذ صاحبة والولد مطلقا ، فقال سبحانه : ( وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا )  
الجن/ 3 .

فقد تنزه سبحانه عن ذلك : لأنه يتنافى وخالفته وأزليته ووحدانته وصمديته ، وليس لأن الزوجة والولد نوع ناقص محتقر بين  
أنواع المخلوقات ، فإن مثل ذلك كمال في حق المخلوق ، ونقص في حق الخالق سبحانه ، ولم يستلزم ذلك في دلالة اللغة أو  
الشرع التنقص من الزوجة والأولاد عموما ، فكذلك الشأن في هذه الآية الكريمة الواردة في السؤال ، لا تستلزم نسبة الاحتقار  
لجنس الإناث .

القول الثاني :

المقصود الأوثان والأصنام التي يصنعها الكفار من ( الحلية ) الذهب والفضة ، وهي لا تملك سمعا ولا بصرا ولا نطقا ، فلا  
تستطيع أن تبين أو تعرب عن نفسها .

قال ابن زيد :

" هذه تماثيلهم التي يضربونها من فضة وذهب ، يعبدونها ، هم الذين أنشئوها ، ضربوها من تلك الحلية ، ثم عبدوها ( وهو في  
الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ) قال : لا يتكلم ، وقرأ (فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) " انتهى من " جامع البيان " (21/580)

وبعد التأمل في ما يمكن أن يستدل له لكلا القولين ، يتبين أن الراجح هو القول الأول ، إذ يمكن الاستدلال له بدليلين ظاهرين :  
الدليل الأول :

أنه يعضده سياق الآيات ، فهو يتحدث عن نظرة المشركين إلى الأنثى من الجهة العقائدية ، حيث جعلوهن بنات الله ، ومن  
الجهة المجتمعية حيث نسبوا إليهن النقص والعيب والعار ، وهذا سياق الآيات : ( أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ .  
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . أَوْ مَن يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ .  
وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ) الزخرف/16-19 .

ولا شك أن تفسير الآية بما يناسب السياق ، ويتوافق معه : أولى من قطع معناها عن سياقها ولحاقها .

يقول الإمام الطبري رحمه الله :

" أولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : عُنِيَ بذلك الجوّاري والنساء ؛ لأن ذلك عقيب خبر الله عن إضافة المشركين  
إليه ما يكرهونه لأنفسهم من البنات ، وقلة معرفتهم بحقه ، وتحليتهم إياه من الصفات والبخل ، وهو خالقهم ومالكهم ورازقهم ،  
والمنعم عليهم النعم التي عددها في أول هذه السورة ؛ ما لا يرضونه لأنفسهم ، فإتباع ذلك من الكلام ما كان نظيرا له ، أشبه  
وأولى من إتباعه ما لم يجر له ذكر " انتهى من " جامع البيان " (21/580) .

وقال أبو إسحاق الزجاج رحمه الله :

"الأجود أن يكون : يعني به المؤنث " انتهى من " معاني القرآن " (4/407) .

ولو رجحنا القول الثاني الذي يقصد الأوثان ، لتخللت هذه الأوثان في سياق آيات قبلها تتحدث عن الإناث ، وآيات بعدها تتحدث عن الإناث أيضا في عقائد المشركين ، وهو انقطاع في المعنى والسياق لا يليق ، لذلك كان القول الأول هو الأرجح .  
الدليل الثاني :

قوله تعالى : ( وهو في الخصام غير مبين ) ، فالأنثى تخاصم ، ولكنها لا تظهر في حجتها ولا في قوة خصامها .  
أما الأوثان فلا يخاصمون أبدا ، لا خصاما مبينا ، ولا غير مبين .  
يقول أبو حيان الأندلسي رحمه الله :

" ويبعد هذا القول [يعني القول الثاني] قوله : ( وهو في الخصام غير مبين ) ، إلا إن أريد بنفي الإبانة : نفي الخصام ، أي : لا يكون منها خصام " .  
انتهى من " البحر المحيط في التفسير " (9 / 363) .

وأما الاستدلال على ترجيح القول الثاني بأن الضمير في قوله تعالى ( وهو في الخصام ) للمذكر ، وهذا لا يناسب تفسير الآية بالإناث ؛ فهذا استدلال خاطئ من جهة اللغة وقواعدها ، ولم يحتج به ( ابن زيد ) رحمه الله .  
فالضمير ( هو ) يعود على ( من ) الموصولة في أول الآية ( أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ )  
و ( من ) الموصولة يجوز أن يعود الضمير عليها بصيغة التذكير ، باعتبار أن لفظ ( من ) مذكر ، حتى لو كان معناها هو المؤنث ، فالعرب قد تقصد تذكير اللفظ ولا تلتفت للمعنى .

ويجوز أن يعود الضمير بصيغة التأنيث ، إذا كان معناها يدل على الأنثى .  
يقول العلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله :

" تذكير ضمير ( وهو في الخصام ) مراعاةً للفظ ( مَنْ ) الموصولة " .  
انتهى من " التحرير والتنوير " (25/182) .

ويشبهه هذا أيضا : ( مَنْ ) الشرطية ، فإن لفظها مذكر ، وقد يكون مدلولها مؤنثا .

تأمل معنا قول الله عز وجل : ( وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا ) الأحزاب/31 ، لماذا استعمل صيغة التذكير في الفعل ( يقنت ) ، رغم أن ( مَنْ ) المقصود بها هنا أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن ؟  
وجواب ذلك ، هو ما ذكرناه آنفا من أن ذلك أمر معروف ، شائع في لغة العرب . والملحظ فيه تذكير لفظ ( مَنْ ) ؛ بل هذا هو الكثير المستعمل في القرآن .

يقول الأخفش رحمه الله :

" ( يَقْنُتُ ) فجعله على اللفظ ؛ لأن اللفظ في ( مَنْ ) مذكر ، وجعل ( تَعْمَلُ ) و ( نُوتَهَا ) على المعنى " انتهى من " معاني القرآن " (1/37) ، وانظر " معاني القرآن " للزجاج (4/228) .

ويقول ابن خالويه :

" ذَكَرَ عَلَى لَفْظِ ( مَنْ ) وَهُوَ يَرِيدُ نِسَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : ( وَتَعْمَلُ صَالِحًا ) فَأَنْتَ " انتهى من " ليس في كلام

العرب " (ص220) .

ويقول الزمخشري رحمه الله - عن الاسم الموصول ( من ) - :

" توقع على الواحد والاثنين والجمع ، والمذكر والمؤنث . ولفظها مذكر ، والحمل عليه هو الكثير .

وقد يحمل على المعنى . وقرئ قوله تعالى : ( وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا ) [الأحزاب: 31] ، بتذكير الأول ، وتأنيث الثاني .

وقال تعالى : ( وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ) [يونس: 42] . وقال الفرزدق : نكن مثل من يا ذئب يصطحبان " انتهى من " المفصل في صنعة الإعراب " (ص: 187) .

وانظر " معاني القرآن " للفرء (2/111) ، " الأصول في النحو " للسراج (2/396) .

وشرح كلام الزمخشري هذا العلامة ابن يعيش رحمه الله فقال :

" اعلم أن ( مَنْ ) لفظها واحدٌ مذكرٌ ، ومعناها معنى الجنس لإبهامها ، تقع على الواحد والاثنين والجماعة ، والمذكر والمؤنث . فإذا وقعت على شيء من ذلك ، ورددت إليها الضمير العائد من صلتها ، أو خبرها على لفظها نفسها ، كان مفرداً مذكراً ؛ لأنه ظاهرُ اللفظ ، سواء أردت واحداً مذكراً ، أو مؤنثاً ، أو اثنين ، أو جماعةً .

وإن أعدت الضمير إليها على معناها ، فهو على ما يقصده المتكلم من المعنى .

فأما ما أعيد إليه على اللفظ فنحو قوله تعالى : ( وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ) ، وقوله : ( وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ) ، ( وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ) ، وعليه أكثرُ الاستعمال ...

وأما المؤنث ، فنحو قولهم فيما حكاه يونس : " مَنْ كَانَتْ أُمَّكَ " ، " أَنْتَ " كَانَتْ " حيث كان فيها ضميرُ " مَنْ " وكان مؤنثاً ؛ لأنه هو الأُم في المعنى .

ومن ذلك قراءةُ الزعفراني ، والجحدري : ( وَمَنْ تَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا ) ، بالتاء فيهما ، حيث أراد واحدة من النساء ، جعل صلتها ، إذ عني المؤنث : كصلة " التي " . وقرأ حمزة والكسائي : ( يَقْنُتْ وَيَعْمَلْ ) بالياء على التذكير حملاً على اللفظ فيهما .

وقرأ الباقر من السبعة : ( يَقْنُتْ ) بالتذكير على اللفظ ، و ( تَعْمَلْ ) بالتأنيث على المعنى " انتهى من " شرح المفصل لابن يعيش " (2/ 415) .

وهذا الجواب اللغوي - كما ترى - دقيق قد يخفى مثله على من يتجرأ على التفسير ، ويتحدث فيه من منطلق آرائي محض ، وليس من منطلق موضوعي ، أو تأصيل علمي ، أو تأويل مأثور عن العلماء الأولين .

وأما باقي ما ورد في السؤال ، في تفسير حديث ( ناقصات عقل ) ، وقضية مساواة المرأة بالرجل ، فقد سبق الخوض فيها بالتفصيل في موقعنا ، في الفتوى رقم : ( 111867 ) ، ( 115534 ) .

ولسنا في صدد متابعة مقاطع الفيديو ، وإعداد الردود على ما ورد في كل كلمة منها ، وإنما مقصدنا الحديث عن المسألة العلمية بتجرد وموضوعية .



والله أعلم .